
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

المشهد الزراعي بالمغرب الأقصى أواخر "العصر الوسيط": متغيرات ظرفية وتبدلات بنيوية

حميد تيتاو*

ما الداعي إلى إثارة القول عن الفترة الانتقالية الموحدية - المرينية واجترار الحديث عن انعكاساتها على الأنشطة الإنتاجية، ومنها الزراعة، وقد خصها كثير من الباحثين بالدراسة وعددوا آثارها ونتائجها؟ لقد بات من المعلوم أن الفترات الانتقالية في تاريخ مغرب العصر الوسيط، ومنها هذه المرحلة، تحيل في أكثر دلالاتها الاجتماعية على الفتن والاضطرابات، وما يتبعها من غياب للأمن واختلال أمر الناس ومعاشهم وفساد أحوالهم. وصار من باب المعلوم أيضا أن النشاط الزراعي تضرر من اضطرابات الفترة الانتقالية الموحدية المرينية؛ وهو ما رددته المصادر في عبارات وأوصاف متشابهة، تراوحت بين النسف والرعي والعيث وإفساد الزروع وحرق المحاصيل ومطاردة المزارعين وتهجيرهم وإلزامهم بأداء الإتاوات وغيرها. غير أنني في هذه المقالة، لا أنوي التفصيل في الانعكاسات الظرفية لمستجدات هذه المرحلة على المشهد الزراعي، وإن كنت سأعرج عليها بغرض التأصيل، بقدر ما أروم تتبع انعكاساتها الهيكلية على النشاط الزراعي في الفترات اللاحقة، وأعني بها أساسا ما بات يعرف بأزمة القرنين 8 و9هـ/ 14 و15م.

نؤكد في البداية أن ثمة اتفاق، يكاد يكون عاما، بين الباحثين في توصيف مظاهر الأزمة التي مست البادية المغربية خلال القرنين 8 و9هـ/ 14 و15م، وإن اختلفوا في تحديد مسبباتها. فدونا عمن مال إلى التركيز على عامل، اعتبره دون غيره أساس، تجلى في الدور التخريبي للقبائل العربية التي باستقرارها أو زحفها على السهول الغربية، آل

* - أستاذ باحث، الكلية متعددة التخصصات، تازة

النشاط الفلاحي إلى التدهور[1]. أبرز البعض، ممن دققوا في تفاصيل الأزمة، تفاعل عناصر عدة أسهمت في تشكل ملامحها، منها ما عرفه المغرب خلال هذه المرحلة من تقلبات طبيعية، وما ميز جزءا مهما منها من اضطرابات سياسية وتبدلات قبلية، إلى جانب سياسة الدولة خاصة في جانبي الجباية والإقطاع، فضلا عن تعقيدات نظام الأرض والتملك[2].

لست أبغي أيضا في هذه المقالة إعادة التفصيل في هذه العوامل، أو دعم هذا الرأي أو تفنيد ذاك، بقدر ما أرنو إعادة النظر في بعض القضايا من زاوية الإضافة، وذلك من خلال التأكيد على دور عامل أعتبر أنه كان ذا وقع كبير في إحداث التغيرات البنيوية التي مست المشهد الزراعي خلال القرنين 8 و9هـ/ 14 و15م، ويجد جذوره الأساسية في الفترة الانتقالية الموحدية المرينية، وأعني به دور التحركات والتبدلات البشرية التي عرفتها المرحلة المشار إليها في تغير السلوك تجاه الأرض والزراعة عامة.

نستعير من الجغرافيين مفهوم المشهد الزراعي باعتباره جزءا من المجال تتم رؤيته بشكل مباشر انطلاقا من نقطة ملاحظة معينة، ويحيل إلى مختلف الظواهر التي غالبا ما تكون نتاج تدخل العنصر البشري فوق هذا المجال. ويتكون المشهد من عناصر طبيعية وأخرى بشرية تنتظم وتتفاعل فيما بينها عاكسة بذلك نمط عيش وثقافة مجتمع هذا المشهد. نستعير هنا هذا المفهوم لاستعماله أثناء الحديث عن المجالات المخصصة للزراعة ونتاج تفاعل الإنسان مع هذه المجالات من سكن واستقرار وغيره، مما يمكن تبينه ورصده من خلال أوصاف المصادر الجغرافية والرحلية منها على الخصوص. كما نستعمله لتمييزه عن المشهد الريفي عامة الذي يحيل إلى كل ما يوجد في البادية وخارج مجال الحاضرة، ولتمييزه عن المشهد الفلاحي حتى

[1]- Henri TERRASSE, **Histoire du Maroc des origines à l'établissement du Protectorat français**, Ed Atlantides, Casablanca, 1950, T2, p. 18. Georges MARÇAIS, **La Berbérie musulmane et l'Orient au moyen âge**, Aubier, Paris, 1946, p. 287. Abdallah LAROUI, **L'histoire du Maghreb: un essai de synthèse**, Maspero, Paris, 1970, pp. 200-225.

[2]- أنظر للتفصيل، عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع، مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2012، ص. 93-119. محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع هـ/ XIV-XVم، مساهمة في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي (العامة-الخاصة) (الطبقة-المرتبة)**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1999-2000م، (مرقونة)، ص. 330-336.

نستثني مجالات الرعي والانتجاع من سياق هذه المقالة، وإن كانت ستحضر في علاقة الفاعلين الجدد، بعد انهيار الدولة الموحدية، بالمجال كما سنرى.

أولا- المشهد الزراعي خلال الفترة الانتقالية الموحدية المرينية

تمتد الفترة الانتقالية الموحدية المرينية على مدى ما يقارب نصف قرن، تبتدأ من هزيمة الموحدين في معركة العقاب سنة 609هـ/ 1212م، وما أعقبها من اقتحام المرينيين لمجال المغرب الأقصى، إلى حدود تمكن هؤلاء من اقتحام مراكش وإنهاء حكم الموحدين سنة 668هـ/ 1269م. وهي مرحلة تميزت عموما بواقع اجتماعي وآخر سياسي معقدين عنوانهما الأبرز عدم الاستقرار والاضطراب المستمرين، وأهم تمظهراته كثرة الحروب والفتن، مع ما رافقها من ضروب الاستيلاء والغصب والتعدي، كان بنو مرين وبقايا الموحدين فضلا عن القبائل ذات النجعة أهم أطرافها. أما تأثيراتها، فمست مختلف القطاعات، يهمنا منها هنا النشاط الزراعي الذي كان أبرز المتضررين[3]؛ إذ «**كثرت الفتن بين قبائل المغرب، واشتد الخوف في الطرقات، ونبذ أكثر القبائل الطاعة، وفارقوا الجماعة، وقالوا لا سمع ولا طاعة، فأكل القوي الضعيف، واستوى الدنيء والشريف. فكان كل من قدر على شيء فعله، ومن أراد منكراً أظهره وابتدعه، إذ ليس لهم مليك يحوطهم، ولا أمير يكفهم ويصدهم (...) فانقطع الحرث، واشتد الغلاء في البلاد بسبب ذلك الإهمال والفساد**»[4].

1- فاعلون جدد "محتقرين" للزراعة

وإذا كانت المعلومات المتعلقة بالانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية لمستجدات المرحلة الانتقالية تكاد تكون معروفة جدا، ولا نرى أهمية ما في عرضها هنا، فإن ما

---

[3]- راجع، حميد تيتاو، **الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني**، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، سلسلة أبحاث 1، الدار البيضاء، 2009، طبع منشورات عكاظ، 2010، ص. 229-244.

[4]- ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور، الرباط، 1972، ص. 36. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص. 288. مجهول، **نبذة من تاريخ المغرب الأقصى**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم 2152 د، ضمن مجموع، ص. 126. عبد الرحمن بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، الجزء السابع، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، مراجعة، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط2، 1988، ص. 226. أحمد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الجزء الثالث، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، ص. 4-9.

يهمنا أكثر هو ما ميز هذه المرحلة من بروز عناصر فاعلة جديدة أسهمت في اضطراب المشهد الزراعي خلال هذه المرحلة، بل نعتقد أن طبيعة هذه العناصر منحت لهذا الاضطراب ميسم الهيكلية والتبدل البنيوي. ويتعلق الأمر بالتغيرات التي مست المورفولوجية القبلية، والمتمثلة في النزوح الجماعي للقبائل الزناتية المرينية الرعوية، إلى جانب قبائل أخرى، نحو الخصب من البلاد والاستئثار بالأرض على حساب القبائل التي تشكلت لديها تقاليد مهمة في تدبير الأرض وفلحها. وهو ما أفضى في اعتقادنا إلى إحداث تحولات عميقة في المشهد الزراعي بشكل عام.

وقبل التفصيل في هذه النقطة، تجدر الإشارة إلى أن حركة التعمير بالمغرب عرفت قبل هذا التحول بقليل تبدلا بارزا آخر، نستحضره هنا اعتبارا لعلاقته الوطيدة بمسألة العلاقة مع الأرض وطبيعة تعامل القبائل معها من ناحية الاستغلال والإنتاج. ونقصد به استقدام الموحدين للقبائل العربية الهلالية ذات الطابع الرعوي من إفريقية وتوزيعها بالسهول الأطلسية[5] لملأ الفراغ الناتج عن التراجع الديموغرافي الكبير الذي مس سهلي تامسنا ودكالة نتيجة استنزاف ساكنتهما من قبائل بورغواطة ودكالة خلال الفترة المرابطية والموحدية[6]. وقد بدأت هذه العملية مع الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي سنة 555هـ/ 1161م[7]، ووصلت أوجها خلال عهد المنصور الموحدي سنة 584هـ/ 1188م حين وطن زغبة في نواحي تلمسان[8]، ونقل بقية القبائل إلى سهول المغرب الأقصى ذات الأرض الخصبة. وهكذا، أنزل رياح ببلاد الهبط الممتدة من سهل أزغار على ساحل البحر المحيط إلى شمال نهر لكوس، وأنزلت الخلط وسفيان وجابر، من قبائل جشم، ببلاد تامسنا «**البسيط الأفيح ما بين سلا ومراكش أوسط بلاد المغرب الأقصى**»[9]، وأنزلت بعض بطونهم أيضا بغمارة مما يلي ساحل طنجة إلى سلا[10].

وغني عن البيان والتفصيل أن كثيرا من الدراسات، الأجنبية خاصة، اعتمدت هذا المعطى دون غيره في تفسير التراجع والانحسار الذي مس المشهد الزراعي خلال

---

[5]- ابن خلدون، **العبر**، ج6، ص. 29. محمد القبلي، **الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط، علائق وتفاعل**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987، ص. 46.

[6]- نفسه، ص. 45-46.

[7]- محمد مغراوي، **الموحدون وأزمات المجتمع**، جذور للنشر، الرباط، 2006، ص. 97-99.

[8]- ابن خلدون، **العبر**، ج6، ص. 21.

[9]- نفسه، ج6، ص. 29.

[10]- محمد مغراوي، **الموحدون وأزمات المجتمع**، ص. 104-105.

القريين 14 و15م، مستندة في ذلك على الطبيعة الرعوية والميول الحربية لهذه القبائل. وهو ما تصدى له بعض الباحثين بالتفنيد مؤكدين على أن كثيرا من هذه القبائل اضطرت فيما بعد نتيجة ضغوط كثيرة إلى تغيير نمط عيشها في السهول التي استوطنتها، فأصبحت قبائل غارمة مستقرة تمتهن الزراعة[11]. وإذا كنا نعتقد أن هذا الرأي يحتاج، في نظرنا، إلى بعض المراجعة، هو ما سنعود إليه بعد حين، فإن ما نتفق فيه مع هؤلاء الباحثين يتمثل في التنبيه إلى مسؤولية التحركات القبلية التي ميزت الفترة الانتقالية الموحدية المرينية في زعزعة القبائل الزراعية بالسهول الأطلسية والمناطق الشمالية، وكذا في سوس والحوز وحاحا[12].

يعتبر محمد القبلي[13] أن التحرك المريني في بداية القرن 7هـ/ 13م كان تحركا رعويا مدفوعا بدوافع التوسع المجالي الصرف، ونميل معه إلى التأكيد على أن عامل انتزاع الأرض واكتساح السهول والنزوع نحو الخصب مثل عنصرا واضحا في الدفع بهذه القبائل إلى مغالبة غيرها على هذه المجالات الخصبة؛ فبعدما كانت قبائل بني مرين تعيش في «**البراري والقفار**»، لم تتردد في استغلال أول فجوة ظهرت في صرح الدولة الموحدية بعد هزيمة العقاب (609هـ/ 1212م). وبعدما استطلعوا «**حال البلاد وخصبها وطيب مزارعها وسعة مراعيها ومسارحها والتفاف أشجارها وغزير مياهها، واطراد عيونها وأنهارها**»[14]، لم يترددوا في انتهاز «**الفرصة، وتخطوا إليه القفر، ودخلوا ثناياه، وتفرقوا في جهاته، وأرجفوا بخيلهم وركابهم على ساكنه، واكتسحوا بالغارة والنهب عامة بسائطهم**»[15].

وتبدو الرغبة في انتزاع الأرض لدى هذه القبائل واضحة من خلال تحركاتها داخل مجال المغرب الأقصى؛ فبعد اكتساحها للمراعي التلية بالشمال الشرقي[16]، كان الغزو ديدنها للاستيلاء على سهول الهبط وأزغار[17]، وانتزاعها من قبائل رياح

---

[11] - عمر بنميرة، **النوازل والمجتمع**، ص. 113-119.
[12] - نفسه، ص. 119.
[13] - محمد القبلي، **الدولة والولاية**، ص. 44.
[14] - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 282. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 26. مجهول، **نبذة من تاريخ المغرب الاقصى**، ص. 126. الناصري، **الاستقصا**، ج3، ص. 5.
[15] - ابن خلدون، **العبر**، ج7، ص. 224.
[16] - ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 33.
[17] - ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- قسم الموحدين**، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1985،

وسفيان التي استوطنتها قبل ذلك بقليل كما أشرنا[18]، وتطلب ذلك حروبا مريرة، **«استلحمهم فيها بنو مرين إلى أن حق الغلب واستكانوا لعز بني مرين وصولته واعطوهم صفقة الطاعة»**[19]. وبعد ذلك، اتجهت هذه القبائل لانتزاع سهل تامسنا من قبائل الخلط وسفيان النازلة به، بعد أن كانت به «**حيا حلولا بأطرافه (...)، وطال عيثهم بضواحي مراكش وإفسادهم**»[20].

هكذا، وبغض النظر عما ارتبط بهذه القواسم الكبرى من حيثيات تعامل القبائل المرينية مع باقي المجال، والتي أفاض في تحليلها أحد الباحثين[21]، فإن ما يمكن الاحتفاظ به هنا هو أن تحركات هذه القبائل القادمة من القفر كانت مؤطرة أساسا برغبة أساسية تمثلت، أولا، في الانتزاع الجماعي للأرض وتقسيمها على فروعها في إطار إقطاع تمليك[22]؛ إذ تذكر المصادر أن أبا بكر المريني «**جمع أشياخ بني مرين ورؤساء قبائلهم وقسم عليهم بلاد المغرب، فأنزل كل قبيلة في ناحية منه، وجعل لها ما نزلت فيه من الأرض وما غلبت عليه من البلاد طعمة لا يشاركهم فيها غيرهم**»[23]. وثانيا في فرض الإتاوات على القبائل التي رضخت لهم، «**على أن تؤمن لهم الطرقات وتكف عنهم الغارات، وتدفع عنهم أذى من كان يؤديهم من القبائل**»[24]. علما أن كثيرا من القبائل العربية اندرجت في

ص. 351. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 37. محمد بن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، إصدارات المكتبة الوطنية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص. 111.

[18]- ابن خلدون، **العبر**، ج6، ص. 37. الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، القسم الأول، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة، 1998-1999، (مرقونة)، ص. 33.

[19]- ابن خلدون، **العبر**، ج6، ص. 37. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 33-35.

[20]- ابن خلدون، **العبر**، ج6، ص. 39.

[21] -Mohamed KABLY, **Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen-Âge**, Ed. Maisonneuve et Larose, Paris, 1986, pp.1-48.

[22]- عمر بنميرة، **النوازل والمجتمع**، ص. 257.

[23]- مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط 1، 1979، ص. 174. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 291. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 65. أحمد بن القاضي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس**، الجزء الأول، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م، ص. 103. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، الجزء الأول، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1983م، ج1، ص. 348-349.

[24]- ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 36-37. القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، الجزء الخامس، تحقيق، نبيل خالد الخطيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1987م، ص. 190. الناصري، **الاستقصا**، ج3، ص. 10.

إطار علاقات تحالف مع المرينيين المتغلبين، وأقطعت لها أراض إقطاع استغلال أو جباية وفق قاعدة الإسهام في الغلبة المرينية مقابل الاستفادة من نتائجها[25].

صاحب اقتحام المرينيين لمجال المغرب الخصيب تحركات أخرى تمثلت في قبائل المعقل التي كانت فيما سبق تشاطرهم مجالهم في القفار[26]. فلما بدأ الاكتساح المريني، لم تتردد هذه القبائل في اقتحام مناطق الريف الشرقي وبعض المجالات القليلة في الغرب وضاحية فاس[27]، ثم ما لبثت، بضغط من المرينيين، أن توجهت نحو الجنوب في سوس والحوز وبلاد حاحا، «**لعدم المزاحم من الظواعن فيها فأوطنوها وصارت مجالاتهم بقفرها، وغلبوا كزولة وأصاروهم في جملتهم ومن ظعونهم، وغلبوا على القصور التي بتلك المواطن من سوس ونول**»[28]. مع الإشارة إلى استمرار حضورهم في ما بين شمالي التخوم الشرقية بمنطقة أنجاد وبلاد الواحات جنوبا، واستمرار تسرب فروع معقلية أخرى نحو الغرب والشمال عبر ممرات الأطلس المتوسط مع مطلع النصف الثاني من القرن 8هـ/ 14م[29].

عموما، نسجل مع أحد الباحثين[30] أن خريطة الساكنة بمجال المغرب الأقصى تأثرت كثيرا من جراء حركات التهجير والهجرات الجماعية المطبوعة بميسم الغزو والحرب خاصة في المرحلة الانتقالية الموحدية المرينية. وقد شكلت القبائل البدوية الهلالية ثم القبائل الرعوية الزناتية أبرز الفاعلين الجدد في ساحة الأحداث وعلى مستوى المجال في السهول الغربية، والمناطق الشمالية بشكل عام، إضافة إلى قبائل المعقل التي توزعت بين سهل سوس وما وراءه، وبين أقصى الشمال الشرقي للبلاد[31]. مع الإشارة إلى حرص بني مرين على ضبط منافذ المجالات الخصبة في السهول الغربية

---

[25]- فصل محمد القبلي في العلاقة التي جمعت المرينيين بالقبائل العربية، انظر الفصل الرابع من أطروحته،
Société, pouvoir, op.cit, pp. 171-218.

وانظر أيضا، عمر بنميرة، **النوازل والمجتمع**، ص. 256-259.

[26]- ابن خلدون، **العبر**، ج6، ص. 77- 78.

[27]- محمد القبلي، **الدولة والولاية**، ص. 50.

[28]- ابن خلدون، **العبر**، ج6، ص. 91.

[29]- محمد القبلي، **الدولة والولاية**، ص. 52.

[30]- نفسه، ص. 53.

[31]- نفسه، الصفحة نفسها.

أساسا من خلال توطين بعض قبائلهم من قبيل مكناسة وبني ينجاسن وبني يرنيان وقبيلة بني وريتان الصنهاجية في المجالات الممتدة ما بين بلاد زيز ووادي صا[32].

2- المشهد الزراعي ومتغيرات المرحلة: انعكاسات ظرفية

لما كانت ممارسة الزراعة تتم، في الغالب، خارج أسوار المدن، وفي البادية لكونها متسعة «**لما لا تتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان**»[33]، فقد كان طبيعيا أن تكون أبرز المتضررين من متغيرات هذه المرحلة، خاصة أن بعض من كتبوا في «**تدبير الحروب ومكائدها**»[34]، أكدوا أن الأمير، «**إذا أراد أخذ بلد معين، فينبغي أن يبدأ بما حولها من القرى والبلاد (...) والضياع**»[35]. كما أن الهدف الذي أطر تحرك القبائل في هذه المرحلة، تمثل في محاولتها اكتساب مراعي جديدة لقطعانها ومجالات أخرى لانتجاعها[36]، وهو ما جعل من البادية دون المدينة - في المرحلة الأولى على الأقل - عنصرا مستقطبا لهذه القبائل. وقد كانت النتيجة انعكاسات ظرفية في المشهد الزراعي، يمكن إجمالها في تخريب الزراعة، وإرباك نشاط المزارعين، والدفع بكثير منهم إلى الهروب نحو الجبال والتخلي عن سكنى المنبسطات، وإثقال ما تبقى من الدورة الزراعية بالمغارم والإتاوات الحربية.

نعتقد، مع كثير من الباحثين، أن اقتحام قبائل بني مرين للمغرب الخصيب خلال هذه المرحلة أحدث صدمة عنيفة بالنسبة للنشاط الزراعي، وأسهم بشكل كبير في ارتباكه وتراجعه؛ وقد أبدت مصادر هذه الفترة انفعالات مختلفة حول الكيفية التي تأثر بها المشهد الزراعي بذلك الوصول العنيف والمخرب للمرينيين، إذ تنطوي مجموعة من النصوص[37] على شعور جماعي بفظاعة سلوك القادمين الجدد نحو سهول

32- المرجع نفسه، ص. 51.

33- عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993، ص. 96.

34- عبد الله بن رضوان، **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، تحقيق علي سامي النشار، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط 1، 1984، ص. 399.

35- مجهول،[كتاب سماه أحد الباحثين كتاب الحرب]، مخطوط الخزانة العامة، الرباط رقم 1584 د، ضمن مجموع، ص. 16.

36- حميد تيتاو، **الحرب والمجتمع**، ص. 113-116.

37- من هذه النصوص على سبيل المثال، قول ابن خلدون عن هذه القبائل «**ثم استشرى من بعد ذلك داء بني مرين وأعضل خطبهم، وكثر الثوار في المغرب**»، **العبر**، ج7، ص. 226. وما يذكره محمد بن غازي في حديثه عن فلاحة أرض مكناسة ووضعها «**قبل أن يستولي على المغرب تخريب بني مرين عند اختلال أمر الموحدين**»، **الروض**

المغرب الخصيب[38]. ففضلا عن تقسيم الأراضي الخصبة التي استولى عليها بنو مرين بينهم «**طعمة لا يشاركهم فيها غيرهم**»[39]، مما يعني تحولا عميقا في المشهد الزراعي سنفصل فيه بعد حين، يكفي أن نحيل إلى بعض الشهادات التي تثبت الضرر الذي مس المشهد الزراعي نتيجة هذا الاقتحام؛ ومن ذلك حديث ابن غازي المكناسي[40] عن إنتاج بعض المناطق من الزيتون، ومدى تراجعه بسبب تخريب بني مرين لأصوله؛ فقد «**كان حب زيتون بحيرة مكناسة يباع عام الحمل بخمسة وثلاثين ألف دينار ونحوها، وحب زيتون بحيرة تازة بخمسة وعشرين ألف دينار ونحوها**»، وكل «**ذلك قبل أن يستولي على المغرب تخريب بني مرين عند اختلال أمر الموحدين**»[41].

أما الشهادات الأخرى، فهي التي توردها بعض المصادر في سياق حديثها عن حملات المرينيين على بعض المناطق، وما ميزها من ترديد الغارات ومعاودة الحرب عليها[42]، «**برسم رعي** [نسف] **زروعها**»[43]، كما هو حال مناطق مراكش وأحوازها التي أفناها يعقوب بن عبد الحق بالغارات ونهب زروعها ومواشيها وقطع أشجارها، إذ لم يتردد في كل مرة يحمل عليها في بث السرايا وتسريح الغارات وإطلاق الأيدي والأعنة لنهب المحاصيل والماشية[44]، وكذلك فعل بتادلة ودرعة[45].

علاوة على دور بني مرين، يجدر بنا أن نشير أيضا إلى التخريب الذي أحدثته حروب الأمراء الموحدين الأواخر في المشهد الزراعي والفلاحي بشكل عام؛ من ذلك ما عبر عنه ابن عذاري[46] بقوله: «**كان أكثر بلاد المغرب غالية الأسعار بسبب كثرة الفتن وقلة الأمطار في تلك الأقطار وبسبب عدم الحماة والأنصار لتلك الجهات والأمصار،**

الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط2، الرباط، 1988، ص. 12. وما يورده الناصري نقلا عن إخباري المرحلة قائلا، «**لما دخل بنو مرين المغرب، كثر عيثهم وضررهم بالمغرب، وأعضل داؤهم وتضاعف على الرعية بلاؤهم، فرفعت الشكاية بهم إلى الخليفة بمراكش**»، **الإستقصا**، ج3، ص. 5.

[38] - عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ص. 107.

[39] - مجهول، **الحلل الموشية**، ص. 174. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 291. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 65.

[40] - ابن غازي، **الروض الهتون**، ص. 18.

[41] - نفسه، الصفحة نفسها.

[42] - ابن خلدون، **العبر**، ج7، ص. 228.

[43] - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 304.

[44] - نفسه، ص. 304-306. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 111، 115-117. ابن خلدون، **العبر**، ج7، ص. 241.

[45] - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 304-306. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 111، 116-117.

[46] - ابن عذاري، **البيان المغرب قسم الموحدين**، ص. 351.

فقد كان أهل تلك البلاد اشتعلت بالفتن نارهم وقلت حماتهم وأنصارهم حتى اشتدت أوجالهم بسبب ما كان بين أمراء الموحدين من الحروب والوقائع والفتن والزعازع»[47]. نتيجة لهذا وذاك، سمح تقلص ظل الدولة عن البادية لبعض القبائل لتعود إلى عادتها في الإغارة على المجالات الزراعية[48]، فأصبحت «**قبائل فازاز من جاناتة وقبائل غمارة وأوربة وصنهاجة والعرب يقطعون الطرقات، ويغيرون على القرى والمجاشر مع الأحيان والساعات، فانقطع الحرث**»[49] نتيجة لذلك، وتوقف ما تبقى من الدورة الزراعية.

ينبغي التأكيد أيضا على أن القبائل العربية كان لها نصيب مهم من مسؤولية التخريب الذي أصاب المشهد الزراعي خلال هذه المرحلة[50]، وحسبنا ما يذكره ابن عذاري[51] عن وضع ضواحي مكناسة جراء غارات قبائل رياح ونهبها، إذ كانوا «**أشد ضرراً في تلك الجهات على الناس (...) بالاختلاس والافتراس**». وبالمثل، كان العرب من قبائل «**سفيان يطلبون ضواحي بلاد حاحا من المصامدة (...)، وطال عيثهم بضواحي مراكش وإفسادهم**»[52]. وتقدم كتب المناقب[53] مادة مهمة حول الدور التخريبي لهؤلاء

---

[47]- نثير الانتباه أيضا إلى تأثر المشهد الزراعي بالصراعات التي نشبت بين بني عبد الواد بتلمسان وبني مرين منذ العقد الثالث من القرن7هـ/ 13م، خاصة في خطوط التماس بين الجانبين بالمغرب الشرقي، مما أثر كثيراً على المشهد الزراعي في هذه المناطق. إذ لم يتردد يغمراسن الزياني في شن الغارات على ثغور المغرب وإضرامها ناراً كلما سنحت له الفرصة، فيحرق وينسف ويستبيح كل ما مرت به جيوشه. ابن خلدون، **العبر**، ج7، ص. 115، 235-238، 244-245. ومن جهته، لم يتوان أمير بني مرين عن شن الغارات على البسائط واكتساحها ونسفها، «**بتخريب الرباع وانتساف الجنات وقطع الثمار، وإفساد الزرع وتحريق القرى والضياع لما كان يغمراسن يعاملهم في بلادهم بمثل ذلك وأكثر**». ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 311. الحسن الوزان، **وصف افريقيا**، ج1، ص. 349-350. الناصري، **الاستقصا**، ج3، ص. 33.

[48]- حميد تيتاو، **الحرب والمجتمع**، ص. 112-113.

[49]- ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 36. الناصري، **الإستقصا**، ج3، ص. 10-18. ابن عذاري، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص. 297.

[50]- الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية**، ق1، ص. 36.

KABLY, **Société, pouvoir**, op.cit, pp. 24-33. TERRASSE, **Histoire du Maroc**, op.cit, p. 334

[51]- **ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص. 351.

[52]- ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص. 39. وتكفي الإشارة إلى التخريب الذي ألحقه عرب الخلط بمدينة مراكش ومنطقة الحوز عامة سنة 632هـ/ 1234م، للوقوف على الأثر الذي مس الفلاحة؛ فقد «**شرعوا في تدمير البحائر، وقطع مياهها، وشجراتها (...)، وعظم انتقامهم وعيثهم في الحوز فضاقت الأرض بما رحبت على الناس (...)، وقل كل مرفق، فأعوز وجدان ما ينتفع به الناس من الحطب والتبن والفواكه وما يجلب من البوادي، واقشعرت الجلود من هول المكابدة في طلب شيء من أنواع الحنطة، وبلغت مبلغاً لا عهد بمثله حتى انتهى الربع الواحد من**

الأعراب خلال هذه الفترة، إذ يكفي التأمل فيما توره من شهادات للكشف عما آل إليه الوضع بالمغرب، حيث انحسرت المجالات الزراعية وفر الفلاحون بفعل الانفلات الأمني وشبه الفراغ السياسي، قبل دخول بني مرين لمراكش وتوحيد ملك المغرب[54].

يمثل نزوح المزارعين من أراضيهم واللجوء إلى المناطق الآمنة مظهرا آخر لمتغيرات هذه المرحلة الانتقالية، وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الظاهرة التي تنتشر في فترات الاضطراب الأمني والسياسي، إذ عادة ما شكلت الجبال والمرتفعات المجال الأكثر استقطابا للمزارعين، طالما أن البسائط، متى اقتدر عليها المحاربون «**بفقدان الحامية وضعف الدولة، فهي نهب لهم وطعمة لآكلهم، يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم**»[55]. ويبدو أن كثرة القلاقل والفتن والصراعات خلال هذه المرحلة، فضلا عن المكانة المهمة التي اكتستها الأرض في مجمل الأهداف الأساسية للأطراف المتحاربة، أفضى إلى عزوف الفلاحين عن سكنى المنبسطات، والامتناع بأوعار «**الجبال لتكون لهم حصنا ومآلا**»[56]. ولتأكيد هذه الخلاصة، يكفي أن نشير إلى الدعوة التي وجهها أبو بكر المريني، مباشرة بعد اقتحامه فاس، لـ«**القبائل بسكنى الأوطية وعمارة القرى والمجاشر الخالية، والاستكثار من الحرث**»[57]. مما يقيم

الدقيق الفاسد إلى ثلاثة دنانير، والناس في ازدحام على من يشعرون عنده زنة الخردلة منه أو من سواه، وما أهمهم إلا إقامة الأود بما ينطلق عليه اسم الحنطة». ابن عذاري، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص. 319.

[53]- نعني هنا بالأساس، كتاب **التشوف إلى رجال التصوف**، لأبي يعقوب يوسف المعروف بابن الزيات التادلي، تحقيق، أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1984. ثم كتاب **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، لعبد الحق بن إسماعيل البادسي، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، 1982. وكتاب **أنس الفقير وعز الحقير**، لابن قنفد القسنطيني، أبو العباس أحمد بن الخطيب، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال، الرباط، 1965.

[54]- ورد في إحدى تراجم **التشوف** للتادلي: «**حدثني عيسى بن يعقوب، قال، قال لي أبو محمد عبد الحق بن عبد الله الميموني، أتيت مرة من الفحص إلى أهلي فلقيت العرب في طريقي وهم يعيثون في الناس يمينا وشمالا**». ص. 383. وأورد البادسي قولاً لأحد المتصوفة، قال: «**كانت العرب قد تغلبت على الريف عام خمسة وثلاثين وستمائة فخفنا منهم، وارتحل جميع أهل بادس بأموالهم وأمتعتهم إلى الجزيرة التي في مرسى بادس، وكنا نحترس الديار رجالا بالأسلحة لا غير، فإذا جاءت العرب غدوة انبسطوا في الوادي وانقطع الناس في العدوتين (...)، لا يقدر من يدخل الوادي من أجل العرب**»، **المقصد الشريف**، ص. 60-61، 75. محمد القبلي، **الدولة والولاية**، ص. 59-62.

[55]- ابن خلدون، **المقدمة**، ص. 117.

[56]- مجهول، **الحلل الموشية**، ص. 174. ابن عذاري، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص. 319. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 27- 65. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 283- 290. ابن خلدون، **العبر**، ج7، ص. 224.

[57]- مجهول، **نبذة من تاريخ المغرب الأقصى**، ص. 132. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 294. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 72-73.

الدليل على تقلص واضح في المساحات المزروعة بسبب فرار المزارعين من أراضيهم، وتحولها إلى ملكية بني مرين وحلفائهم من القبائل ذات النجعة والحرب.

وإذا كان الكثير من المزارعين فضلوا التخلي عن أراضيهم فرارا من الغزو والغارة، أو نزوحا بعد انتزاعها منهم قسرا بعد قتال، فإن من أذعن وبقي فيها، ومن عاد إليها في لحظات سكون الفتن والقلاقل، ومن استقر قراره بالجبل والمرتفعات كان معظمهم ملزمين بأداء الإتاوات للأطراف المتغلبة خلال هذه المرحلة، مما شكل عبأ آخر على النشاط الزراعي بشكل عام. ويبدو في هذا السياق أن ضغط المرينيين كان شديدا، حيث تأرجحت علاقتهم مع القبائل بين الرضوخ مقابل دفع إتاوة معلومة سنويا، سمتها المصادر خراجا أو مغرما أو ضريبة معلومة[58]، أو الغزو وما يقتضيه ذلك من اكتساح للأرض والأموال، وانتزاعها قسرا من أهلها[59]. ومن الأمثلة على هذا، حال أهل مكناسة الذين أجبروا على أداء الإتاوة لبني حمامة من بني مرين[60]، وظلوا يؤدونها إلى أن داهمهم هجوم آخر من قبل بني عسكر، حيث حاصروهم حتى ضاقوا ذرعا، فلما تيقنوا من هلاك أموالهم وزروعهم، بعثوا إلى المغيرين علماءهم وصلحاءهم راغبين في كف عاديتهم[61]، «**فما قبلوا لهم رغبة ولا رهبة استشعروا من الله سبحانه فيهم مخافة ولا رهبة، بل ألزموهم أربعة آلاف دينار خفارة**»[62].

والواضح أن اليد الطولى في فرض الإتاوات على الفلاح لم تقتصر على بني مرين، بل كان للأمراء الموحدين الأواخر باع طويل في هذا الميدان، حيث استندوا إلى جموع الفلاحين في تمويلهم بالأموال لدفع رواتب جنودهم، وتغطية نفقات حروبهم. ومن ذلك ما تذكره النصوص عن وضع أحواز أزمور الذين أخذ السعيد الموحدي (640-646هـ/ 1242-1248م) أهلها «**بالمغارم الثقيلة حتى لم يبق لهم شيئا**»[63]. وما تعرضت له مكناسة نتيجة الصراع الموحدي - المريني عليها، حيث نزل بها عامل

---

[58]- محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ص. 357.

[59]- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ص. 288. ويبدو أن مثل هذه الأوضاع التي ميزت كثيرا من فترات تاريخ المغرب الوسيط، هو ما دفع بابن خلدون إلى القول إن الفلاح يعيش «**ذليلا بئيسا، بما تتناوله أيدي القهر والاستطالة**»، وأضحى نشاطه نتيجة لذلك خاصا بـ«**المستضعفين وأهل العافية من البدو**». ابن خلدون، **المقدمة**، ص. 310.

[60]- ابن خلدون، **العبر**، ج6، ص. 345.

[61]- إبراهيم القادري بوتشيش، **إسهامات في التاريخ الاقتصادي - الاجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط**، منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل، مكناس، مطبعة فضالة، المحمدية، 1997، ص. 42.

[62]- ابن عذاري، **البيان المغرب قسم الموحدين**، ص،357.

[63]- ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 66.

الرشيد الموحدي، «**فألزم أهلها وظائف وتكاليف وابتلاهم بأنواع المغارم والملازم (...) ليوفي العسكريين مالهم**»[64]. وما فرضه الرشيد على بعض أحواز مراكش وأغمات عندما «**انطمس رسم الخراج بالكلية (...)، وتعينت رجال لشدة الحاجة، وتبيين الأجناد وافتقارهم إلى إقامة الأود الذي عليه الاعتماد (...)، فاقتضى نظر الرشيد أن يقدم عمالا على صنهاجة تاسغرت ودكالة ورجراجة (...) وطالبها بالواجبات**»[65]. وكذلك فعل بالقبائل الغمارية والفازازية التي جبيت منها «**جباية عظيمة حصل الأجناد منها على مال عظيم**»[66].

نحتفظ مما سبق بخلاصات أساسية تتمثل في الآتي:

أ- تأثرت المورفولوجية القبلية بمجال المغرب الأقصى كثيرا بسبب سياسة التهجير التي نفذها بعض الحكام الموحدين، وأكثر بعد الهجرات الجماعية المطبوعة بميسم الغزو والحرب خلال المرحلة الانتقالية الموحدية المرينية. وقد شكلت القبائل البدوية الهلالية ثم القبائل الرعوية الزناتية إضافة إلى قبائل المعقل أبرز الفاعلين الجدد في ساحة الأحداث بعد استيلائها على الأرض على حساب القبائل التي تشكلت لديها تقاليد مهمة في تدبير الأرض وفلحها. وهو ما أفضى في اعتقادنا إلى إحداث تحولات عميقة في المشهد الزراعي بشكل عام خلال هذه المرحلة.

ب- أفضى تراجع سلطة الموحدين في مجال المغرب الأقصى، وعودة المغالبة القبلية، واقتحام القبائل ذات النجعة والغزو المشار إليها إلى تراجع النشاط الزراعي نتيجة كثرة عمليات النهب وتخريب المحاصيل، وانتزاع الأراضي، وتهجير الفلاحين من أراضيهم، وإلزامهم، وغيرهم ممن ظلوا في مجالاتهم، بدفع الإتاوات.

---

[64]- يذكر ابن عذاري أنه بعد ذلك، رحل إلى فاس فأغرم فيها بالتعيين «**جملة من الناس، ثم عاد إلى جهة مكناسة الزيتون، فنزل بمقربة من زرهون ففر أهل تلك الجهات أمامه، وتركوا مواضعهم وربوعهم، وأسلموا للنهب مواشيهم وزروعهم**»، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص. 354.

[65]- نفسه، ص. 333.

[66]- نفسه، ص. 336. انظر أيضا عن وضع أغمات وضواحيها، أزريكم عبد الرزاق، **أغمات وما إليها بالعصر الوسيط، دراسة اجتماعية اقتصادية**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1993، (مرقونة)، ص. 131.

ثانيا- المشهد الزراعي بعد الفترة الانتقالية الموحدية المرينية: تبدلات هيكلية

ننطلق في هذا العنصر من فرضية أساسية، نعتقد فيها باستمرار آثار متغيرات الفترة الانتقالية الموحدية المرينية إلى ما بعدها على مدى زمني طويل يتجاوز ما يمكن وصفه بمرحلة قوة الدولة المرينية التي لم تتجاوز نصف قرن تقريبا. ونود هنا أن نقتصر في تتبع هذه الآثار على التبدلات البنيوية التي مست المشهد الزراعي نتيجة التموجات القبلية المشار إليها سلفا، والتي أفرزت سيطرة القبائل ذات النجعة على المجالات الخصبة من المغرب على حساب القبائل ذات التقاليد الزراعية.

1- امتدادات ما بعد المرحلة الإنتقالية الموحدية المرينية

من غير المستبعد أن يكون تحقق الغلبة للمرينيين بعد اقتحامهم لمراكش وتوحيد مجال المغرب الأقصى وتوطد أركان دولتهم، قد أفضى إلى نوع من الاستقرار، مما أتاح الفرصة لانتعاش النشاط الفلاحي بشكل عام مقارنة مع المرحلة الانتقالية، وهو ما تثبته كتب الجغرافيا والرحلات التي أكدت التحول الإيجابي للفلاحة في هذه الفترة[67]، وإن لم يخل وصفها من نظرة تجزيئية تعميمية للوضع العام، إذ لم يسجل في مغرب هذه المرحلة أي توسع زراعي مقارنة بسابقتها الموحدية على سبيل المثال، بل يمكن الحديث عن تراجع ملحوظ له حسب أحد الباحثين[68]، لا نستبعد أن يكون لأصل قبائل بني مرين الرعوي ولشركائها أيضا دور هام في إذكائه وترسيخه[69].

وإذا استثنينا المبادرة التي أقدم عليها أبو الحسن المريني حين وزع على الأيتام في سائر القبائل قطعاً أرضية مقدار حرث زوجين لكل فرد، مع إسقاط اللوازم المخزنية

---

[67]- أحمد العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر، ممالك إفريقيا ما وراء الصحراء، وممالك إفريقية وتلمسان وجبال البربر وبر العدوة والأندلس**، تحقيق وتعليق، مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1988، ص. 26، 127-128، 139. محمد بن بطوطة، **الرحلة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأمصار**، تعليق طلال حرب، دار الكتب العلمية، د.ت، ص. 667-668. عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ص. 109.

Jean BRIGNON et autres, **Histoire du Maroc**, Librairie Nationale, Casablanca, 1967, p. 154.

[68]- محمد الطويل، **الفلاحة المغربية في العصر الوسيط**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1987-1988، (مرقونة)، ص. 71-76، 99، 213.

[69]- يميل بعض الباحثين أيضا إلى هذا التفسير لفهم التراجع الذي مس النشاط الفلاحي خلال العصر المريني. نفسه، ص. 95-96. وانظر مقال محمد ياسر الهلالي «الاشتغال بالفلاحة في مغرب أواخر "العصر الوسيط"، علاقة التمثلات بالواقع التاريخي»، ضمن أعمال هذه الندوة.

عن الأرض الممنوحة[70]، وتوزيع أبي عنان أزواج الحرث على الزمنى والضعفاء ليقوموا بها أودهم[71]، فضلا عن بعض الإجراءات القليلة في مجال السقي وإن اقتصرت على المغترسات المرينية في فاس[72]، والمبادرات المحدودة في التخفيف من ضغط الضرائب، خاصة في عهد أبي سعيد عثمان وأكثر في عهد خلفه أبي الحسن[73]، لا نكاد نعثر في مصادر الفترة على ما يؤكد اهتمام السلطة المرينية بتنشيط الزراعة في هذه المرحلة، أو بتوسيع المشهد الزراعي وتشجيع الفلاحين على العودة إلى أراضيهم[74].

بالمقابل، تؤكد نصوص أخرى استمرار نهج الدولة المرينية لسياسة إقطاع الأراضي للقبائل ذات النجعة لتسخير أفرادها في حروبها، أو لاستمالتها بغرض وضع حد لتحرشاتها، مما أسهم في تكريس نتائج متغيرات الفترة الانتقالية الخاصة بزحف القبائل الرعوية على المشهد الزراعي؛ ففضلا عن الأراضي الموزعة منذ بداياتها الأولى على قبائلها في إطار إقطاع تمليك، وتأرجح إقطاع صنيعاتها من القبائل العربية بين التمليك وما يمكن تسميته بإقطاع الحرب والجباية، وهي العمليات التي همت كثيرا من المجالات الشمالية[75]، استفاد ذوي منصور من إقطاع المناطق الممتدة ما بين درعة وملوية إلى تاوريرت[76]، ثم أقطعت لهم بلاد درعة بعد ذلك[77]، وحصل ذوي عبيد الله المعقليين على المثلث الواقع بين تلمسان ووجدة ومصب ملوية، وما لبثوا أن تملكوا وجدة وندرومة وبني يزناسن وميدونة وبني سنوس[78]. من جانب آخر، انضوت قبائل المعقل في السوس

---

[70]- ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص. 420.

[71]- ابن بطوطة، **الرحلة**، ص. 671.

[72]- سجل أحد الباحثين غياب مبادرات الدولة في ميدان السقي مفسرا ذلك بالأصل القبلي للدولة المرينية ذو العلاقة بنمط الرعي والترحال. محمد الطويل، **الفلاحة المغربية**، ص. 95-96. عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ص. 296-301.

[73]- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 375،397. ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص. 117-119، 282-283، 285. عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ص. 94-106.

[74]- عن سياسة الدولة المرينية اتجاه الفلاحة، راجع مقال محمد ياسر الهلالي عن «الاشتغال بالفلاحة في مغرب أواخر "العصر الوسيط"»، ضمن أعمال هذه الندوة.

[75]- اعتبر عمر بن ميرة أن المرينيين اعتمدوا في بداية الأمر إقطاع التمليك، ثم تحولوا عنه إلى إقطاع استغلال أي إقطاع الجباية، دون أن يتخلوا عن إقطاع التمليك الذي كان وسيلة ناجعة لضمان ولاء الخدام. للتفصيل أكثر في مسألة الإقطاع بمغرب العصر المريني راجع، **النوازل والمجتمع**، ص. 256-273.

[76]- ابن خلدون، **العبر**، ج6، ص. 87.

[77]- نفسه، ج6، ص. 88.

[78]- نفسه، ج6، ص. 81.

ضمن تحركات بعض «**الخوارج المنتزين على الدولة**»[79]، وعرضت عليهم خدماتها، وكان آخرهم إقطاع أبي علي بن سعيد بن عثمان المريني لما انتزى بمجالات سجلماسة ودرعة[80]، واستمرت في هذا الوضع إلى أن أقطعها إياها أبو الحسن حين «**بعث معهم عساكره (...)، وجبى بلاد السوس، وأقطع فيه للحرب وساسهم للجباية**»[81].

ومن الضروري أن نتوقف هنا للإشارة إلى قضية أساسية نعتبرها صلب انشغالنا في هذه المقالة؛ ذلك أن نمط العيش المعتمد على الرعي والانتجاع والغزو هو ما يجمع هذه القبائل القادمة من القفار سواء قبيل المرحلة الانتقالية الموحدية المرينية أو خلالها أو بعدها مما أشرنا إليه أعلاه. وسواء تعلق الأمر بالعرب الهلاليين أو المعقليين، أو بزناتة ومنها بني مرين، فإن هذه القبائل تندرج ضمن البدو الذين ألفوا «**سكنى الخيام واتخاذ الإبل، وركوب الخيل، والتغلب في الأرض وإيلاف الرحلتين**»[82]، لا يعرفون الحرث ولا التجارات، «**ومكاسبهم الشاء والبقر والخيل في الغالب للركوب والنتاج، وربما كانت الإبل من مكاسب**[هم]»[83]، ولا يستقرون في مكان واحد لعدم وجود أرض كافية لرعي ماشيتهم[84]. على أن أهم ما يجب الاحتفاظ به عن هذه القبائل إلى جانب طابعها الرعوي، أنها أيضا من صنف البدو الذين جعلوا «**أرزاقهم في ظلال رماحهم، ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب**»[85]. وعلى هذا الأساس، فإن ما ينبغي أن يسجل هنا أن الأمر يتعلق بمشهد زراعي أصبح في ملكية رعاة محاربين، ومن هنا بالضبط يستمد سؤالنا عن حال المشهد الزراعي وأوضاع المزارعين مشروعيته.

يبدو من المعطيات التي تقدمها المصادر أن معظم القبائل، الزناتية والعربية مع استثناءات تخص بعض القبائل العربية الموطنة في سهول تامسنا وأزغار، لم تغير

---

[79]- نفسه، ج7، ص. 273.

[80]- نفسه، ج6، ص. 92.

[81]- نفسه، الصفحة نفسها. عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ص. 258-259.

[82]- ابن خلدون، **العبر**، ج7، ص. 3. الناصري، **الاستقصا**، ج3، ص. 3.

[83]- ابن خلدون، **العبر**، ج6، ص. 116. ابن خلدون، **المقدمة**، ص. 97. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 25. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 282. الناصري، **الإستقصا**، ج3، ص. 5.

[84]- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، ص. 62. وأضاف: «**يقضي هؤلاء الرحالة حياتهم كلها حتى الموت في الصيد واختطاف جمال أعدائهم، ولا يقيمون في أي موطن أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة ريثما ترعى إبلهم كلأه**»، ص. 59.

[85]- ابن خلدون، **المقدمة**، ص. 211. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 25. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 282. الناصري، **الاستقصا**، ج3، ص.5.

من نمط عيشها المعتمد على الرعي والانتجاع والغزو بعد أن أضحت سيدة المجال في مختلف المناطق التي أشرنا إليها. لذلك كان طبيعيا أن يتقلص المشهد الزراعي لصالح الرعي والإنتجاع في هذه المجالات. يكفي هنا أن نشير إلى نماذج من النصوص التي تثبت المنطق الذي تعاملت به هذه القبائل مع الأراضي التي استولت عليها، فقد أقطع يعقوب بن عبد الحق جهات مراكش لبني كمي ومن كان معهم من العرب القادمين من المغرب الأوسط، حيث أنزلهم هناك، «**وجعل انتجاع إبله ورواحله وسائر ظهره في أحيائهم (...)، فأقاموا يتقلبون في تلك البلاد، ويتعدون في نجعتها إلى أرض السوس، وكانت ماشية السلطان يعقوب متفرقة في سائر المغرب**» قبل ذلك[86]. ومن النماذج التي تخص القبائل العربية، ما ذكره ابن خلدون عن بني جابر من جشم الذين تحيزوا «**إلى سفح الجبل بتادلا وما إليها يجاورون هناك صناكة الساكنين بقشتة وهضابه من البربر، فيسهلون إلى البسيط تارة ويأوون إلى الجبل في حلف البربر وجوارهم أخرى إذا داهمتهم مخافة من السلطان أو ذي غلبة**»[87]. وهو ما يحيل إلى استمرارهم في اعتماد نمط الترحال والانتجاع. أما المعقليين الذين استأسدوا في مجالات السوس والريف والجنوب الشرقي، فثمة كثير من الأدلة التي تفيد استمرارهم في اعتماد الرعي والانتجاع[88].

وفضلا عن مسألة طبيعة استغلال الأرض من قبل هذه القبائل، وعلاقة ذلك بانتشار نمط الرعي على حساب الزراعة، ينبغي أن نضيف أن كثيرا من هذه القبائل، أثناء اكتساحها للمجالات الخصبة، فرضت نفسها باعتبارها "حاميات عسكرية" توفر خدماتها في الدفاع عن غيرها من القبائل أو الحواضر، بحكم نزعتها الرعوية والحربية، مقابل إتاوات معلومة. على هذا الأساس، أصبحت المناطق الخصبة في المغرب مجالات لرعي قطعان هذه القبائل، وفي الآن نفسه أضحت القبائل الزراعية المغلوبة عرضة لجباياتها وإتاواتها. ولم تكن قبائل بني مرين في لحظة دخولها إلى المغرب الأقصى سوى قبائل رعوية غازية، وفي الآن ذاته حامية برجالها وسلاحها لغيرها من القبائل مقابل

---

[86]- ابن خلدون، **العبر**، ج7، ص. 288-304. محمد بن الخطيب، **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، الجزء الثاني، نشر وتعليق، أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص. 308. الناصري، **الاستقصا**، ج4، ص. 66.

[87]- ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص، 42.

[88]- نفسه، ج6، ص. 92.

أموال معلومة[89]. وهو الدور نفسه الذي قامت به بعض القبائل العربية مثل رياح في المجالات السهلية التي هُجرت إليها قبل أن تنافسها القبائل المرينية وتفرض عليها التحالف[90]. أو بعض قبائل المعقل التي استوطنت سوس[91]، والريف[92].

يبدو من خلال هذا التحليل أن الطابع الحربي الذي ميز هذه القبائل قبل وأثناء اقتحامها لمجالات المغرب الأقصى، بما في ذلك القبائل التي استفادت من إقطاعات الدولة المرينية، أثر بدوره في المشهد الزراعي. وهكذا، فإلى جانب احتفاظها بنظام الرعي والانتجاع في مجالاتها الجديدة، كانت وظيفة هذه القبائل مرتبطة أشد الارتباط بطابعها الحربي وبمدى ما تتوفر عليه من الرجال حاملي السلاح، ويتوزع بين وظيفتي الغزو، أو فرض الإتاوة والمغرم على أصحاب الأرض الذين لم يهجروا منها مقابل الحماية، مع ما يحيل إليه ذلك من رسوخ الاعتقاد لدى هذه القبائل بأن الفلاحة معاش المستضعفين وقبائل الذل الغارمة[93] وبكون الغزو مصدر المعاش الأفضل[94]. وهو الوضع الذي ظل مرتبطا باستمرار بطبيعة الدولة في حالة القوة أو الضعف.

فمع تمكن قبائل بني مرين من مغالبة معظم القبائل والحواضر المغربية وإخضاعها، أضحت خدمات تلك القبائل تقدم لصالح الدولة ومن أجلها، وبينما كانت القبائل المعتمدة للزراعة تقدم الجباية وتحشد للسلطان وتعسكر له في كل حين[95]، كانت القبائل القوية تعرض خدماتها له مقابل إرضائها بالإقطاعات والأموال. وقد ارتبط التوزيع الأول للأرض على القبائل المرينية نفسها من قبل أبي بكر المريني بمدى ما توفره تلك القبائل من الرجال المحاربين، حيث «**أمر كل واحد من الأشياخ أن**

89- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 289. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 37. ابن خلدون، **العبر**، ج7، ص. 226. محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال، الدار البيضاء، 1987، ص. 110.

90- ابن خلدون، **العبر**، ج7، ص. 225.

91- نفسه، ج6، ص. 91.

92- البادسي، **المقصد الشريف**، ص. 60-61، 75.

93- ابن خلدون، **المقدمة**، ص. 310. ابن خلدون، **العبر**، ج6، ص. 116. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 25. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 282. الناصري، **الإستقصا**، ج3، ص. 5. محمد أعفيف، **مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي لواحات الجنوب المغربي، توات في القرن XIX م**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1982، (مرقونة)، ص. 173.

94- حميد تيتاو، **الحرب والمجتمع**، ص. 98- 116.

95- نفسه، ص. 173-174.

يركب الرجال ويستكثر من الفرسان للقتال»[96]، مثلما حكمت المهام الحربية والجبائية منطق الإقطاعات التي حصلت عليها قبائل ذوي منصور وذوي عبيد الله في المجالات الشرقية والجنوبية الشرقية[97]، وقبائل المعقل في بلاد السوس[98]، وكذا القبائل الزناتية التي أقطعت المجالات الممتدة ما بين بلاد زيز ووادي صا[99]. وفي كل هذه الحالات، فإن ما يمكن الاحتفاظ به أن القبائل التي سيطرت على المجالات الخصبة بالمغرب لم تعمل على تغيير نمط عيشها بقدر ما حافظت على أسلوبها في الرعي والانتجاع، وتوفير المحاربين للمشاركة في حروب الدولة في الداخل والخارج[100]، أو لجباية الضرائب من القبائل الغارمة[101]، مع تسجيل محاولات مستمرة من قبل بعض هذه القبائل للتمرد والاستفراد بمجالاتها وجباياتها بعيدا عن السلطة[102].

وابتداء من السنة التي أعقبت وفاة أبي عنان (759هـ/ 1357م)، وعلى امتداد قرن ونصف من الزمن، تعاقبت على المغرب الأقصى فترات طويلة من الاضطرابات السياسية والحروب والفتن، لا تنتهي واحدة إلا لتبدأ أخرى، وفي مختلف المناطق، سواء بين الأمراء المرينين حول السلطة ومكاسبها[103]، أو بين الدولة وبعض المنتزين الذين

---

[96]- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 291. مجهول، **الحلل الموشية**، ص. 174. ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**، ق1، ص. 103. الناصري، **الاستقصا**، ج3، ص. 11.

[97]- فبينما أقطعت قبيلة ذوي عبيد الله من بني معقل المناطق الشمالية الشرقية بين تلمسان ووجدة ومصب واد ملوية لحماية هذه المجالات من تحركات بني عبد الواد، أقطعت قبيلة ذوي منصور المناطق الجنوبية الشرقية على امتداد نهر ملوية السفلى من تاوريرت حتى تافيلالت للقيام بالدور نفسه.

KABLY, **Société, pouvoir,** op.cit, pp. 231-232

[98]- ابن خلدون، **العبر**، ج6، ص. 92. ج7، ص. 273.

[99]- محمد القبلي، **الدولة والولاية**، ص. 51.

[100]- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص.314-350- 377-388. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. 129- 145. ابن خلدون، **العبر**، ج7، ص. 243-244-249. الناصري، **الاستقصا**، ج3، ص. 25-26، 31-32. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج5، ص. 203. حميد تيتاو، **الحرب والمجتمع**، ص. 169-173.

[101]- ابن خلدون، **العبر**، ج6، ص. 92، 345. ج7، ص. 273.

[102]- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. 307-330، 377-378، 381-382، 391، 397-399.

[103]- ابن خلدون، **العبر**، ج7، ص. 377، 415-416، 421-422، 472. الناصري، **الاستقصا**، ج4، ص. 3-4، 7، 32، 68. ابن غازي، **الروض الهتون**، ص. 40. وتمثل حروب أبو سعيد عثمان الثالث (800-823 هـ/ 1398-1420 م) أبرز نموذج لحروب هذه المرحلة وما خلفته من نتائج وخيمة، وقد قدم الحسن الوزان معطيات عنها من مثيل بني بازيل ضواحي فاس التي كانت لها «**بادية شاسعة تجري فيها جداول كثيرة وينابيع غزيرة(...) وكان بضواحيـ[هـا] حدائق كثيرة حسب ما يظهر من آثارها الباقية، لكن المدينة خربت كغيرها من المدن في حروب سعيد، وظلت مهجورة مدة تناهز مائة وعشر أعوام**». الأمر نفسه بخميس مطغرة بالقرب من فاس التي كانت «**تربتها خصبة**

استغلوا تقلص ظلها على مناطقهم فأعلنوا تمردهم[104]، وما رافق ذلك كله من ضروب الغصب والتعدي كان المزارعون أبرز المتضررين منها، وهي المظاهر التي وافقت ما يميز الفترة الأخيرة من عمر الدولة، عادة، «**من العدوان في الأموال (...)، أو الفتن الواقعة في انتقاض الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة**»[105]، والتي كانت أبرز نتائجها «**قبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر**»[106].

وقد كانت القبائل ذات النجعة والحرب فاعلا أساسيا في تلك الاضطرابات، ففضلا عن مشاركتها في الصراعات بين الأمراء المرينيين ودعمها لبعض المتمردين[107]، عادت هذه القبائل إلى عادتها في التحرش وغزو القبائل المجاورة لتعويض مشاركتها في حروب الدولة وما كانت تحصل عليه من امتيازات[108]. ومن الأمثلة في هذا الصدد، ما تعرض له سهل تامسنا من تخريب وعيث من طرف بعض القبائل العربية، «**وهو الوطن الخصب، الكثير السقي، الغزير الربيع، الجم الفاكهة، الملتف الشجر، المستبحر الغلل، فانتسفوه وأتوا على راعيته، واحترشوا الأرض من خزينه، واجتثوا قائم شجره، وارتعدوا مدرك زرعه، ولم يتركوا به نافخ ضرمة**»[109]. كما ذكر ابن خلدون[110] أن شيخ أولاد حسين من بني معقل استغل صراع أمراء المرينيين على السلطة، فـ«**نزل ما بين فاس ومكناسة، وشن الغارات على البسائط واكتسحها وأرجف الرعايا وأجفلوا إلى الحصون**». ناهيك عما تعرضت له سجلماسة وضواحيها أثناء مطاردة الجيش المريني لهذه القبائل، حيث «**هزموه وخربوا بيوته وبساتينه بسجلماسة**»[111]، وغير هذه الأمثلة كثير[112].

جداً وتقوم حولها على مسافة نحو ميلين أغراس جميلة من الكروم والتين (...) لكنها أعيدت كلها لحالتها الطبيعية، لأن هذه المدينة خربت أثناء حرب سعيد وأصبحت مهجورة». وصف إفريقيا، ج1، ص. 217.

[104]- ابن خلدون، **العبر**، ج6، ص. 92. ج 7، ص. 188-189.

[105]- ابن خلدون، **المقدمة**، ص. 237.

[106]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[107]- ابن خلدون، **العبر**، ج7، ص. 188-189- 472.

[108] -KABLY, **Société, pouvoir**, op.cit, pp. 138.

عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ص. 117-118.

[109]- محمد بن الخطيب، **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، الجزء الثالث، تقديم وتحقيق، السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1989، ص. 109.

[110]- العبر، ج7، ص. 472.

[111]- نفسه، ص. 188.

[112]- نفسه، ص. 189.

من جانب آخر، عرفت هذه المرحلة أيضا محاولات تسرب المجموعات القبلية الأخرى، خاصة من بني معقل، إلى المناطق الخصبة[113]، والتي بسبب بعضها مثلا، كان ملوك فاس المرينيين «**يقيمون بتازا الصيف كله لحراسة البلاد وحمايتها من أعراب** تلك المناطق»[114]. هكذا، ففضلا عن تحول كثيرٍ من المجالات الخصبة إلى ملكية القبائل ذات النجعة والحرب، حيث حافظت فيها على نمط عيشها الرعوي والحربي، فقد عانت المناطق الزراعية الأخرى من تحرشات هذه القبائل وتلك التي ظلت في المجالات الهامشية، واستمرت في محاولات اقتحام هذه المجالات خاصة بعد تراجع ظل الدولة عن البادية[115].

أما في المجالات البعيدة عن سلطة المخزن، فقد استأسدت القبائل الرعوية المحاربة بما أقطع لها، وفرضت على ما تبقى من المزارعين فيها إتاوات كبيرة أثقلت كاهلهم أسهمت بدورها في تراجع نشاط هؤلاء[116]، واختصر ابن خلدون[117] هذا الوضع في حديثه عن بلاد السوس بقوله: «**ثم انقرض أمر السلطان أبي الحسن (...)، ورجع السوس إلى حاله وهو اليوم ضاح من ظل الدولة، والعرب يقتسمون جبايته، ورعاياه من قبائل المصامدة وصنهاجة قبائل الجباية، والظواعن منهم يقتسمونهم خولا للعسكرة مثل كزولة مع بني حسان وزكرز ولخس من لمطة مع الشبانات، هذه حالهم لهذا العهد**».

لقد كان طبيعيا أن يتبلور دور أساس لتلك القبائل الرعوية المحاربة في المجالات التي لم تعد تصلها سلطة المخزن المريني بفعل قوة رجالها وكثرة عددهم، والتي سبق ووسمناها بـ"الحاميات العسكرية"، حيث بدأت تقدم خدماتها العسكرية لغيرها من القبائل طوعا منها أو كرها مقابل الإتاوات، وانتشر ذلك أكثر خلال القرن 9هـ/ 15م. ففضلا عن سيطرتها على المجالات الزراعية، أضرت هذه القبائل بمن كان مستقرا فيها

[113] - محمد الطويل، **الفلاحة المغربية**، ص. 215.

KABLY, **Société, pouvoir**, op.cit, pp. 138-139

[114] - الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، ص. 355.

[115] - نفسه، ج 1، ص. 300، 368-367.

[116] - Mohamed B.A. BENCHEKROUN, **Le milieu marocain et ses aspects culturels, Étude sociologique, institutionnelle, culturelle et artistique à l'époque mérinide et wattaside**, Rabat, 1970, pp. 142-143.

[117] - **العبر**، ج6، ص. 92.

من القبائل الزراعية حين فرضت عليها إتاواتها المجحفة[118]. وإذا استثنينا القبائل التي ظلت تحافظ على استقلاليتها وتدافع عن نفسها بنفسها؛ كما هو حال قبائل جبل آيت واوزكيت الذي «**يقابل ناحية هسكورة** [والذين لهم] **أمير يحكمهم بصفته رئيسا لهم، يأخذ جبايات الجبل ليصرفها في الحروب التي تنشب بين قومه وسكان جبل تنزيتة، ويعمل تحت إمرته نحو عشرة آلاف فارس، بينما يمثل الأعيان والفرسان مثل هذا العدد بالتقريب**»[119]. أو جبل مطغرة بالقرب من تازا الذي «**لا يدفع سكانه خراجا** [لغيرهم قصد حمايتهم إذ] **فيهم نحو سبعة آلاف محارب، لأن لهم ما يقرب عن خمسين قرية**»[120]. أو بعض عرب دكالة الذين «**أعفوا من كل التكاليف، محتمين بوفرة عددهم**»[121]، فقد كانت معظم القبائل مجبرة على الخضوع لتلك القبائل المحاربة بدفع الإتاوات لها مقابل الحماية، أو التعرض لغزوها وتحرشاتها المستمرة.

ومن الأدلة في هذا الصدد، ما تذكره المصادر عن أهل درعة وسجلماسة وتدغة وتبلبالت الذين كانوا مجبرين على أداء الإتاوة لقبائل بني معقل[122]، مثلهم في ذلك مثل أهل تارودانت الذين كانوا يدفعون «**لهؤلاء الأعراب خراجا كثيرا عن الأراضي الزراعية حسب العادة**»[123]، وقبائل حاحا التي كانت تتقاضى قبائل الحارث منها خراجا كثيرا[124]. أما أهل تينزا في مجالات كدميوة، فإن «**السكان** [لم يكونوا] **يستطيعون حرثها بسبب إزعاج الأعراب، وإنما يزرعون منحدر الجبل الواقع بين النهر والمدينة، وحتى عن هذا الجزء يؤدون ثلث المحصول كإتاوة للأعراب**»[125]. وعموما، فإن كثيرا من القبائل التي استوطنت أو أقطعت مجالات شاسعة من المغرب خلال الفترات التي أشرنا إليها، حافظت على نمط عيشها الرعوي والحربي، وأصبحت «**تساهم بتقديم عدد من رجالها كسادة لكثير من الجبال الآهلة بالسكان والمدن والقصور التي أقطعهم إياها مختلف ملوك بني مرين**»[126]. وقد جرت العادة أن تستعين كل

---

[118]- عمر بنميرة، **النوازل والمجتمع**، ص. 131.

[119]- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، ص. 170.

[120]- نفسه، ج1، ص. 356.

[121]- نفسه، ج1، ص. 47.

[122]- نفســه، ج1، ص. 54.

[123]- نفســه، ج1، ص. 118.

[124]- نفســه، ج1، ص. 52.

[125]- نفســه، ج1، ص. 123- 124.

[126]- نفســه، ج1، ص. 55.

قبيلة بخدمات تلك الحاميات وأفرادها «**الذين** [كانوا] **يتقاضون مقابل ذلك أجرة كبيرة، قدرها نصف مثقال لليوم لكل فارس يقاتل لحسابه، لكن هؤلاء الأعراب تؤدى لهم الأجرة يوما ليوم وعن الأيام التي استعملوا فيها أسلحتهم**»[127].

يبدو جليا، أن ما كانت تحصل عليه هذه القبائل من إتاوة في حالة الحماية، أو الغنائم في حالة الغزو والإغارة شكل عمدة معاشها واقتصادها، ويكفي في هذا الصدد أن نحيل إلى أفراد قبيلة دليم التي لم تتمكن من فرض سطوتها على قبائل تحميها مقابل الإتاوة، ورجالها نتيجة لذلك لم يكونوا «**يتقاضون أي أجر، فهم لذلك صعاليك لصوص، كثيرا ما يأتون إلى درعة ليستبدلوا مواشيهم بالتمر**»[128]. وإلى قبيلة البرابش التي كانت تقيم في القسم «**الموالي لإقليم سوس، وهم كثيرون وضعفاء (...) يحكمون تشيت التي لا تكفيهم حتى لتصفيح حوافر خيولهم القليلة**»[129].

2- تبدلات بنيوية: نزوع عام نحو الرعي على حساب الزراعة

نعتقد أنه إلى جانب الضربات الموجعة التي تلاقاها النشاط الزراعي خلال المرحلة التي أعقبت وفاة السلطان أبي عنان وطيلة القرن 9هـ/ 15م نتيجة الاضطراب الأمني والسياسي الذي ميزها، يبدو أن المشهد الزراعي تضرر بشكل أكبر بسبب هيمنة القبائل ذات النجعة والحرب، حين مارست في المجالات التي استأسدت بها أسلوبها الرعوي والحربي. ونتيجة لذلك كله تراجع النشاط الزراعي، وسحبت منه كل ميكنزمات تطوره، ففقد الفلاح كل ما يحفزه عن العمل والفلح وأفلس غيره، بينما اضطر البعض الآخر إلى بيعه الأرض بالثنيا أو الرهن للتخلص منها[130]، مما أعاق تطور هذا النشاط وتوسعه. في حين فضل آخرون التخلي عنها وهجرها أو التعاطي لمهن أخرى[131]، وانتظم كثير ممن فضلوا البقاء في مواطنهم في إطار عقود شركة مع من ضموا أملاكهم، بدليل انتشار عقود شركة المزارعة وكثرتها بالمقارنة مع شركة المغارسة[132]. وكان أهم ما ميز هذه العقود عدم تكافؤها في غالب الأحيان، وضيق

[127]- نفســه، ج2، ص، 120.
[128]- نفســه، ج2، ص. 54.
[129]- نفســه، ج2، ص. 54.
[130]- عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ص. 117-120. محمد الطويل، **الفلاحة المغربية**، ص. 72، 214.
[131]- محمد الطويل، **الفلاحة المغربية**، ص. 72، 214.
[132]- محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ص. 383-384، 389.

الحال حتى إن المزارع لم يكن يشترط فيها سوى بعض قوته اليومي وملبسه السنوي، كما يبدو واضحا من خلال عقود شركة الخماسة[133].

على أن أبرز مشهد سجلته مصادر المرحلة، فتمثل في اضطرار الكثير من المزارعين الأصليين إلى هجر أراضيهم[134]، أو احتراف الرعي بعد أن انعدمت لديهم حوافز العمل والإنتاج[135]. وقد تداولت نصوص المرحلة معلومات كثيرة تثبت نزوح المزارعين نحو الجبال والمعتصمات فرارا من ضغط القبائل ذات النجعة والحرب، فتحدثت عمن **«أجفلوا إلى الحصون»**[136]، وعن سهل أضحى **«غير مسكون»**[137]، ومنبسط **«سكن ربوعه الآهلة البوم»**[138]، وتواتر الحديث عن مجاشر **«خلت (...) وانجلى عنها أهلها»**[139]، وبوادي أضحت **«مهجورة»**[140]، وأخرى **«خلت من أهلها»**[141]، ومداشر تكاد تكون **«غير مسكونة»**[142]، وقرى **«خربت وخلت من العمارة»**[143]، وغير ذلك من النصوص التي توحي بنزوح جماعي هائل للمزارعين اتجاه المرتفعات حتى غدا **«معظم البادية (...)** [في كثير من المناطق] **غير مأهول»**[144].

الظاهر إذن أن أهم تحول شهده المشهد الزراعي خلال هذه المرحلة تمثل بالأساس في لجوء معظم الفلاحين إلى الجبال، في الوقت الذي أصبحت فيه أملاكهم وأراضيهم في ملك القبائل الزناتية المرينية والقبائل العربية ذات النجعة والحرب مما أسهم في زعزعة النشاط الزراعي وانهياره. ونجد صدى واضحاً لهذا التحول في الوصف

---

[133]- انظر نازلة سئل عنها موسى العبدوسي وعيسى بن علال، الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، الجزء الثامن، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص. 151.

[134]- عمر بنميرة، **النوازل والمجتمع**، ص. 348.

[135]- محمد الطويل، **الفلاحة المغربية**، ص. 72.

[136]- ابن خلدون، **العبر**، ج7، ص. 472.

[137]- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، ص. 116.

[138]- ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج2، ص. 58.

[139]- ابن غازي، **الروض الهتون**، ص. 40.

[140]- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، ص. 217.

[141]- انظر نازلة سئل عنها أبو العباس القباب، الونشريسي، **المعيار**، ج7، ص. 62.

[142]- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، ص. 125.

[143]- محمد بن محمد بن ناصر الدرعي، **الأجوبة**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم 1644 د، ميكروفيلم 2583، ضمن مجموع، ص. 153.

[144]- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، ص. 125.

الذي قدمه ابن خلدون[145] لجغرافية المغرب البشرية، حيث قال: «**ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة، ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والأظعان في نتاج الإبل وظلال الرماح، وقطع السابلة. فكانت جبال المغرب لذلك أكثر ساكنها من المصامدة، وهي الأغلب وقيل من صنهاجة. وبقيت البسائط من المغرب مثل أزغار و تامسنا وتادلا، ودكالة، واعتمرها الظواعن من البربر الطارئين عليه**».

وقد كشف ابن الخطيب[146] عن بعض من ملامح هذا التبدل في حديثه عن حوز مراكش أثناء وصفه للطريق بين أغمات ومراكش، حيث أصبحت «**أدواح الزيتون والأشجار تساوقها جريات الأنهار، تتخللها أطلال الحلل والديار نيف على سطر البريد لا تنال صفح ثراه الشمس ولا ترتاده الحرباء، وقد اقتطعت ذلك الجذب الخصيب أيدي الوحشة، وأخيفت من حلل غابه السابلة، وسكن ربوعه الآهلة البوم**»، بعد أن «**عافته الأيدي، وغلت أيدي فلاحه الفتنة**»[147].

وعبر الحسن الوزان عن هذا التحول في حديثه عن سهول المغرب الأقصى أواخر القرن 9هـ/ 15م، فأكد أن معظمها تراجع عن وضعيته السابقة وإن ربط بعض أسبابه بحروب الأمراء المرينيين، خاصة أبا سعيد عثمان الثالث، ومن ذلك أزغار الذي وصفه بأنه «**عبارة عن سهل أرضه جيدة، ولذلك سكنته أقوام كثيرة، وقامت فيه مدن وقصور إلا أن هذه الأمكنة قد خربت بسبب حرب نشبت في الزمن القديم**»[148]. والهبط التي كانت أرضه «**عجيبة حقا بسبب خصوبتها ووفرة إنتاجها، معظمها سهل تخترقه مجاري مياه عديدة، وكانت في قديم الزمان أكثر نبلا وشهرة من أيامنا هذه**»[149]. وإقليم فاس الذي «**تقوم فوق جميع رباه قرى كثيرة وكبيرة جداً، لأن السهول قليلة السكان بسبب الحروب الماضية غير أن بعض الأعراب الفقراء يعيشون بها في مداشر**»[150].

145- **العبر**، ج6، ص. 116.

146- ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج2، ص. 58.

147- نفسه، ص. 56.

148- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، ص. 301.

149- نفسه، ج 1، ص. 306.

150- نفسه، ج1، ص. 207.

ويبدو الأمر أكثر وضوحا عندما نبحث عن أوضاع المجالات التي فوضها المرينيون لقبائل بني معقل، حيث سيطر هؤلاء على السهول، وفرت ساكنتها نحو المرتفعات[151]؛ ومن الأمثلة الموضحة لهذا الاستنتاج، أن القسم المجاور للأطلس بإقليم تارودانت كانت توجد فيه «**كثير من القرى والمداشر، بينما يحتل العرب السهول الجنوبية ويرعون فيها ماشيتهم**»[152]. وفي منطقة أخرى بالسوس كثرت «**القرى والمداشر، لكن القسم الغربي منها غير مسكون لأنه عبارة عن سهل بيد الأعراب**»[153]. وقرب تينزا القريبة من مراكش «**توجد (...) سهول واسعة صالحة كلها لزراعة الحبوب، غير أن السكان لا يستطيعون حرثها بسبب إزعاج الأعراب، وإنما يزرعون منحدر الجبل الواقع بين النهر والمدينة، وحتى عن هذا الجزء يؤدون ثلث المحصول كإتاوة للأعراب**»[154]. كما أن «**البادية المحيطة بـ** [تومكلاست في الحوز] **جميلة وصالحة جداً للحبوب، غير أنه لا يمكن زرعها بسبب تعسف الأعراب، وتكاد تكون هذه القصور غير مسكونة**»[155]. ومثل هذا الوضع ينسحب أيضا على مجالات الريف التي خضعت لهذه القبائل، ومن ذلك مجالات بني مسكلدة حيث «**تمتد سهول كبيرة عند سفح الجبل هي في أيدي بعض الأعراب، وهم في حرب مع سكان الجبل في أغلب الأحيان**»[156].

وإذا كانت هذه النصوص تكشف عن تراجع المشهد الزراعي بالسهول نتيجة ضغط القبائل الرعوية المحاربة، فإن نصوص أخرى تثبت أيضا ظهور ظاهرة البستنة داخل الأسوار، وحسبنا أن أغمات، فلم يعد فيها سوى بعض من البساتين والجنات داخل أسوارها[157]، لأن «**عدوها تضيق لكثرته السهول، وأموالها - لعدم المنعة- في غير**

---

[151]- عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ص. 118-119. أحمد البوزيدي، **التاريخ الاجتماعي لدرعة، مطلع القرن السابع عشر، مطلع القرن العشرين، دراسة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال الوثائق المحلية**، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1988، (مرقون)، ص. 114، 124-126، 130-133.

KABLY, **Société, pouvoir**, op.cit, p. 249.

[152]- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، ص. 118.

[153]- نفسه، ج 1، ص. 116.

[154]- نفسه، ج1، ص. 123-124.

[155]- نفسه، ج 1، ص. 125.

[156]- نفسه، ج 1، ص. 339.

[157]- ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج 2، ص. 56.

ضمان، ونفوسها لا تعرف طعم أمان»[158]. وأن مراكش غرست الأراضي الفارغة فيها **«بالنخيل والكروم والأشجار المثمرة لأن السكان لا يستطيعون أن يملكوا ولو شبراً واحداً من الأرض الصالحة للفلاحة خارج الأسوار لكثرة تعسف الأعراب»**[159]. وقريبا منها مدينة تاشرافت التي أصبح معظم سكانها بسبب تعسف هؤلاء **«بستانيون، ويفيض النهر فيتلف جميع البساتين ثم يأتي الأعراب في الصيف فيأكلون كل ما يجدونه من الطيبات»**[160].

مع كل هذا، يجدر بنا أن نتوقف عند قضية أساسية سبق لأحد الباحثين أن تناولها في إطار رصد وضعية القبائل العربية التي وُطِّنت في سهول تامسنا والغرب وأزغار قبيل الفترة الانتقالية الموحدية المرينية، حيث أكد، بناء على معطيات وفرتها المصادر، أن سلوك العديد من هذه القبائل عرف تغيرات عمودية عميقة خاصة خلال القرن 8 هـ/ 14م، تمثلت في تحولها من قبائل بدوية انتجاعية إلى قبائل غارمة مزارعة[161]. وقبل مناقشة هذا الرأي نقدم نماذج لهذه القبائل بما يفيد اقتناعنا بهذا الرأي، وإن كنا سنقدم فيه بعض المراجعة.

من بين النصوص التي تفيد تبدل نمط عيش القبائل المعنية، حديث ابن خلدون عن القبائل الهلالية التي تضاءلت قوتها في عهده، حيث **«ضربت الأيام ضرباتها (...)، ونسوا عهد البداوة، وصاروا في عداد القبائل الغارمة للجباية»**[162]، واضحى بعضها مستقرا يمتهن الزراعة من قبيل أعراب السهل الممتد بين فاس وسايس، وأعراب "إقليم فاس" وبعض أعراب دكالة وتامسنا[163]. وإذا كنا لا نختلف كثيرا مع هذا الرأي، فإن ما ينبغي أن نضيفه هنا أن مصطلح الغارمة لا يعني القبائل الممارسة للزراعة فقط بقدر ما يحيل إلى القبائل التي تخضع للسلطان وتؤدي الجباية سواء اعتمد نمط عيشها على الزراعة أو على الرعي والانتجاع.

---

[158]- محمد بن الخطيب، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق، محمد كمال شبانة، نشر اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، 1976، ص. 164.

[159]- نفسه، ج 1، ص. 128-129.

[160]- نفسه، ج1، ص. 126.

[161]- عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ص. 115-117.

[162]- ابن خلدون، **العبر**، ج6، ص. 38.

[163]- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، ص. 50-51، 215، 293، 318.

وقد يكون من المفيد هنا أن نذكر بالتمييز الذي أقامه ابن خلدون[164] بين أصناف البدو، حيث قسمهم إلى ثلاث جماعات حسب توغلهم في البادية؛ فهناك من كان معاشهم على الإبل، وهم الأبعد في القفر، وهم عادة تلك القبائل التي لا تؤدي المغارم للدولة، ثم من كان معاشه على الغنم والبقر وهم الأقل ارتحالا وتوغلا في القفار، وأخيرا من كان معاشه على الزراعة وكان المقام به أولى من الظعن. ونعتقد، اعتمادا على مجموعة من النصوص مما سنحيل إليه أسفله، أن التحول الذي مس القبائل التي وطنت في سهول تامسنا وأزغار والغرب يكمن في تخليها عن الإبل والإبعاد في الرحلة إلى اعتماد نمط الترحال القصير وأحيانا المزاوجة بين الرعي والزراعة والاستقرار، وهم من يسميهم ابن خلدون بأصحاب الغنم والبقر.

ومن الأدلة المدعمة لهذا الرأي، حديث الوزان عن أعراب هذه القبائل الذين امتهنوا الزراعة، فقد كانوا يحرثون «**أرضهم، فيحصلون منها على كمية وافرة من الحبوب**»[165]، لكنهم أيضا امتهنوا الرعي وكانوا «**يكسبون عددا لا يحصى من الغنم والبقر، الأمر الذي جعلهم لا يستقرون في مكان واحد لعدم وجود أرض كافية لرعي هذه الأعداد الوافرة من الماشية**»[166]. ومن الأمثلة الدقيقة في هذا الصدد، قبائل أزغار التي تحولت فعلا إلى قبائل غارمة تجمع بين حرث الأرض ورعي الماشية، وعنهم قال الوزان إنهم «**أقبلوا على رعي الماشية وحرث الأرض (...)، وعاشوا مع ذلك تحت الخيام، لا في الأكواخ والدور الخشنة**»[167].

علاوة على ما سبق، يبدو أن التغير الذي مس اسم سهول تامسنا نحو تداول اسم "الشاوية"[168] بشكل كبير، يكشف عن التغيير الهيكلي الذي شهدته هذه المنطقة،

---

[164]- ابن خلدون، **المقدمة**، ص. 96-97.

[165]- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، ص. 62.

[166]- نفسه، ج1، ص. 62. وثمة نصوص أخرى تفيد اعتماد هذه القبائل على الزراعة والرعي في آن، من قبيل أعراب قبيلة صبيح التي تقيم «**في السهول بين سلا ومكناسة، ولهم أغنام وأبقار، يحرثون الأرض ويؤدون الخراج كذلك لملك فاس**». نفسه، ج1، ص. 51.

[167]- نفسه، ج1، ص. 47.

[168]- انظر الدلالة الطوبونومية لتامسنا وآراء الباحثين حول هذه الدلالة وكلها تصب في اعتماد المنطقة على النشاط الزراعي. مولود عشاق، **حركة المتنبئين بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط**، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، 1999، ص. 13.

ويحيل الجذر الاشتقاقي **للشاوية** على الشاه مما له علاقة بالمجال الرعوي. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، ص. 66. انظر مولود عشاق، **حركة المتنبئين**، ص. 14.

وهو ما أكده ابن الخطيب[169] في وصفه الدقيق لهذا المجال، حيث أبرز استمرار الطابع الرعوي لدى هذه القبائل بقوله: «**اقتحمنا الرمل الذي أخرج الله مرعاه، وحشر البهم فحضرت مدعاه، ما بين خيام، ورعاة غير لئام، وبيوت شعر، ومعاطن وبر، وغنم قملت بها الأرض، وبقر ضاق بها الطول والعرض (...) بين خيام قد استدارت كالودائل، واشتملت على الولائد والعقائل، ودشر ركبت الهضاب بأخصاصها، وملأت الوهات ببهمها وقلاصها (...) مدائن دورها شعر، ووقودها بعر، وسورها سدر**». وربما وجبت الإشارة هنا إلى أن هؤلاء الرعاة ليسوا فقط من القبائل العربية، بل إن أكثرهم من القبائل الزناتية التي تملكت هذه الأراضي خلال الفترة الانتقالية الموحدية المرينية، وهي التي أشار إليه الحسن الوزان عندما تحدث عن تلك القبائل في عهده، فقال إنهم تكاثروا منذ أن حلوا بهذه المنطقة «**حتى إنهم اليوم وربما كان ذلك منذ مائة سنة يخيفون ملوك فاس ويرعدون فرائصهم، إذ يقدر أن عددهم يصل إلى ستين ألف فارس ومائتي ألف راجل**»[170].

عموما نعتقد أن تغير نمط عيش هذه القبائل لم يصل إلى مستوى القبائل الزراعية، بقدر ما يحيل إلى تحول في سلوكها اتجاه الأرض، حيث أضحت تتعامل معها بمنطق منفعي صرف؛ أي أنها استغلت جزءا منها للزراعة والجزء الأكبر بشكل جماعي في الغالب، لأن الملكية الجماعية في حالة هذه القبائل تبدو أكثر انسجاماً مع توجهاتها الأصلية، تستفيد منها مؤقتا لحظة استقرارها المؤقت قبل أن تغادرها للانتجاع أو لحرب أصحاب أرض أخرى أكثر خصبا[171]، مما أسهم بشكل أو بآخر في انتشار الرعي وتربية المواشي أكثر من التركيز على حرث الأرض والزراعة وحدها. وربما بهذا الشكل، يمكن أن نفهم أسباب استمرار التقاليد البدوية الحربية التي تناسب التنقل والرعي لدى هذه القبائل، وهو ما توضحه بعض أوصاف الحسن الوزان عن هذه القبائل، حيث عدد مقدار ما تملكه من المقاتلين والفرسان من مثيل أعراب الخلط بأزغار الذين عدد فيهم حوالي «**ثمانية آلاف فارس مجهز أحسن تجهيز**»[172]، وقبائل الأثبج في

---

[169]- ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج3، ص. 89-90.

[170]- نفسه، ج1، ص. 196.

[171]- الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، ق1، ص. 120.

[172]- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، ص. 50.

دكالة وتادلة التي «**يبلغ عددهم نحو مائة ألف مقاتل نصفهم من الفرسان**»[173]، حتى إن أعراب دكالة «**أعفوا من كل التكاليف محتمين بوفرة أعدادهم**»[174].

استنتاجات عامة

أخيرا، نعتقد أن كثيرا من التغيرات التي مست المشهد الزراعي خلال النصف الأخير من القرن 8هـ/ 14م وطيلة القرن 9هـ/ 15م تجد جذورها في الجيوب التاريخية لهذه المرحلة، وبالضبط خلال المرحلة الانتقالية الموحدية المرينية. طبعا إلى جانب عناصر أخرى بعضها ظرفي مرتبط بمستجدات المرحلة من قبيل السياسة الضريبية للدولة والمتغلبين وتراجع ظل السلطة وغياب الأمن بشكل عام، وبعضها بنيوي حضر خلال هذه المرحلة وطيلة العصر الوسيط من قبيل دورية الكوارث الطبيعية وبساطة وسائل الإنتاج.

ومع ذلك، يبدو أن التغيرات المرتبطة بمستجدات المرحلة الانتقالية المشار إليها خاصة على مستوى الخريطة القبلية، والمتمثلة في الحضور الوازن للقبائل ذات التقاليد الرعوية والحربية (القبائل العربية المهجرة، ثم القبائل المرينية والزناتية وقبائل بني معقل) في مختلف مجالات المغرب الأقصى واستيلائها على الأرض، واستمرار الدولة المرينية، المنبثقة بدورها من هذه البنية القبلية الرعوية، في سياسة إقطاع الأراضي لهذا النوع من القبائل، كل ذلك أفضى إلى تغيرات بنيوية في المشهد الزراعي عنوانها الأبرز تراجع المجالات المخصصة للزراعة لفائدة الرعي والانتجاع.

والظاهر أنه في ظل الحضور البين للقبائل الرعوية والحربية في البادية المغربية بشكل عام ونتيجة لغياب الأمن وكثرة الاضطرابات وتراجع ظل الدولة عن البادية ابتداءا من النصف الأخير من القرن 8هـ/ 14م، وأكثر طيلة القرن 9هـ/ 15م، سيكون من الصعب أن نتصور إمكانية تحقق النزوع نحو الاستقرار والزراعة سواء بالنسبة للفلاحين المزارعين ممن ظلوا في أراضيهم بعد اكتساح القبائل ذات النجعة والحرب، أو بالنسبة لهذه القبائل نفسها خاصة وأن النشاط الزراعي، مثل غيره من الأنشطة الاقتصادية، إلى الأمن والاستقرار. وعلى العكس من ذلك، سيكون من السهل تأكيد حدوث نزوع عام نحو اعتماد الرعي والانتجاع، أو الرعي أكثر والزراعة بشكل أقل

[173] - نفسه، ج1، الصفحة نفسها.

[174] - نفسه، ج1، ص. 47.

خاصة في قمم الجبل وداخل أسوار المدن، لأن الاقتصاد الرعوي يصبح أكثر ضمانا لأمن القبائل من الاقتصاد الزراعي بسبب سهولة الهروب بالقطيع مقارنة بالمحصول من الحبوب وأكثر من الشجر.

بناء على هذه الخلاصة، قد يكون من المفيد البحث بشكل أدق، وربما لفهم أكثر وضوحا عن أسباب انتشار نوازل شركات المغارسة والمزارعة، وكثرة الثانية وتراجع الأولى خاصة في مغرب القرن 9هـ/ 15م، إذ أن كثرة هذه الشركات تحيل إلى بروز ملاك للأرض لا يتقنون فلحها أو على الأقل لا يميلون إلى هذا النشاط. كما أن انتشار المزارعة مقارنة بالمغارسة[175] قد يفسر بتراجع الاعتماد على الأشجار المثمرة التي تحتاج إلى شرط الأمن وتتطلب سنوات للنمو والإنتاج بشكل أكبر مقارنة بزراعة الحبوب التي تسمح بالتعامل مع الأرض وفق ظروف السنة الواحدة[176].

وقبل هذا وذاك، نعتقد أن ما وثقناه في هذه المقالة قد يسمح بفهم أعمق أو على الأقل إضافي لأسباب انتشار العقلية المحتقرة للفلاحة خلال هذه المرحلة، والتي يمكن اختصار تعبيراتها العامة بشكل موجز في وصف بن خلدون الذي اعتبر الفلاحة **«معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو (...) يختص منتحله بالمذلة»**[177].

---

[175] - محمد فتحة، **الأحكام والنوازل والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 12 م إلى 15 م**، بحث لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء، السنة الجامعية، 1995، ص. 693.

[176] - Abdallah LAROUI, **Histoire du Maghreb, un essai de synthèse**, François Maspero, Paris, 1982, p. 200.

محمد بن حسن، **القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط**، دار الرياح الأربع للنشر، تونس، 1986، ص. 52.

[177] - ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 310. ولمزيد من التفصيل، راجع مقالة محمد ياسر الهلالي ضمن هذا العمل.